كن مؤدبًا

بعدمـا أخـبره طبيبه عـن إصابته بمرض خطـير، وأن يومه قـد اقترب وحياته قاب قوسـين أو أدنى من الانقضاء، خرج يمشي مشية الحائر الذاهل، وقد نسج الألم على وجهه غـبرة، مطلقًا لعبرته سبيلها، يئن أنينًا محزنًا، قد حمل همًّا عظيمًا، وبينما هو يسير هائمًا على وجهه أراد أن يشرب ماءً؛ لجفاف في ريقه أصابه بعد الخبر الكارثة، وعندما دلف إلى البقالة، فـإذا به يجد صاحبها يضرب طفـلًا صغيرًا ضربًا مبرحًـا، فاستفظع ما فعل الرجل، فلم يتردّد في إطلاق النار عليه، فأراده قتيلًا، ثم خرج، واستقلّ سيارة أجرة، وقد قابله السائق بازدراء واحتقار، ما دفعه إلى إطلاق رصاصة عليه، وبعدها وجـد نفسه في سيرك عالمي يـزور مدينته، فأراد أن يـروح عن نفسه، وانتظم في طابـور شراء التذاكر، وساءه ما شاهد من فظاظة أحد الباعة مع الجمهور، فاستقبح سلوكه، فتتبّعه، عندما خرج، وباغته برصاصة أودت بحياته، العجيب أن الرجل كان يسألهـم جميعًا قبل أن يقتلهم عن أعمارهم، وبعدما يجيبونه يرد عليهم: ربما عشت ضعف عمرك لو كنت مؤدبًـا! وكان يترك بجانب كل ضحية ورقة كتب فيها: لو كان لطيفًا لعاش أطول!

وبعد سلسلة من الحوادث ذاع صيت الرجل في المدينة، وانتشر خبره، وتناقل الرواة ما يفعله، فدبّ الذعر في قلوب الناس، وخصوصًا غير المهذبين والصفقاء؛ خشية أن يكونوا ضحاياه القادمين، فربما التقوا هذا الرجل ذات يوم، فيؤدبهم على سوء خلقهم بالقتل! ما دفعهم إلى أن يكونوا أكثر لطفًا وأرق تعاملًا وتهذيبًا مع الآخرين، فعمّ اللطف وانتشر بين الناس في المدينة!

ماذا تختار: من تلك القصة الرمزية؟ أقول: اختر إما الموت أو اللطف! فاللطف والأدب وحسن التعامل مع الآخرين عمرٌ ثانٍ طويل من حيث بركة العمر وعظم الجوائز المكتسبة، وأجدني أحيانًا عاجزًا عن إيجاد تفسير منطقي لغلظة بعضهم وقسوته وتعامله العنيف مع الجميع، فلا تجد أحدًا قد سلم منه ولا من سوء خلقه، فلا تراه إلا متجهمًا، وإذا ما خالفت رأيه رماك بجارح الكلام، وإذا ذهبت غير مذهبه جرّعك مسموم كلامه مغلظًا لك في الخطاب.

يذكر في هذا أن غنيًّا كان شديد الكبر عظيم الصلف احتقر أحد حاملي الأمتعة في أحد المطارات، وبعد أن غادر التاجر أتى أحد المسافرين يواسي العامل، فقال له العامل مبتسمًا: لا تقلق سيدي، هو يريد لوس أنجلوس، وأمتعته ستذهب إلى نيويورك!

الحكمة: وأفضل أخلاق الرجال التصبُّر.